اختلاف صيغ الألفاظ بين الإفراد والجمع في القرآن الكريم
دراسة بلاغية تحليلية لتغاير المفردة القرآنية
(نماذج من سورة النساء)

إعداد

د. لبيب محمد جبران صالح

الأستاذ المساعد بعمادة الخدمات التعليمية

قسم الدراسات الإسلامية

جامعة طيبة – المدينة المنورة

ملخص البحث

يتوخىٰ هذا البحث التطرق إلىٰ أسرار العدول بين صيغ الإفراد والجمع وملامحه البلاغية، لإظهار لون من ألوان الإعجاز في المفردة القرآنية، فقد شكَّل هذا التحول في بنية الكلمة نمطًا فريدًا في النص القرآني المعجز، كان له دلالات وإشارات، كلها تهمس بعظم النص القرآني وسماوته، وتحاول هذه الدراسة أن تتسمع لهمس السياق القرآني، وتكشف أسرار هذا التحول بين صيغ الإفراد والجمع للوقوف علىٰ أذواقه البلاغية.

فتعرض هذه الدراسة لمادة صيغ الألفاظ وتبدلها بين الإفراد والجمع، وتنتقي نماذج من سورة النساء خاصة، حتىٰ نقف علىٰ ظاهرة أسلوبية تمثل نمطًا في السياق القرآني، ومنهجًا مطردًا فيه، له نكاته ودلالاته وأسراره.

وقد اتبعت المنهج الاستقرائي الناقص، والمنهج الاستنباطي التحليلي، لاستنباط الإشارات البلاغية، والتسمع إلىٰ أسرار العدول، ووفائه بأغراض النظم ودواعيه.

وتوصل الباحث إلىٰ أن القرآن بتحولاته ما بين إفراد وجمع، إنما يختار المفردة الأكثر امتلاءً بالمعنىٰ، فيهجر الجمع، ويؤثر الإفراد والعكس كذلك، ليخلع علىٰ النص دلالات بيانية راقية، يكشف عنها حسن التتبع والنظر.

ويوصي الباحث أن تقوم هيئة بتبني مشروع لدراسة مواطن التغاير بين الإفراد والجمع في القرآن الكريم للوقوف علىٰ أدق أسرار الكتاب العزيز ونكاته.

الكلمات المفتاحية:

اختلاف الصيغ، العدول، الإفراد، الجمع، بلاغة، سورة النساء.

* * *

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، أما بعد:

اختار الله لكتابه أفصح الكلام وأبينه، وفق منهجية منتظمة لا تتخلف، واختار لمفرداته صيغًا مختلفة قادرة علىٰ أن تشيع في نفس السامع ما تحمله من دقائق الإشارات، وخفايا المقاصد، ونلمح في آيات الكتاب سياقات تخاطب المفرد ثم تتبدل لتخاطب الجمع وفي السياق ذاته، وكذلك العكس، ومن أمثلة ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١]، فقد جاءت لفظة (عدوًا) مفردة لا بصيغة الجمع (أعداء) الموافقة للسياق حيث كان جمعًا (الكافرين)، فما السر في إيثار مفردة والعزوف عن جمعها، أو اختيار الجمع وهجر مفرده؟

فتعمد هذه الدراسة إلىٰ الربط بين دلالات الصيغ، إفرادًا وجمعًا، للوقوف علىٰ أسرار المغايرة، ونواحي التصرف في أفانين القول، وما تلقيه من ظلال علىٰ السامع، والتكشف عن الحكمة من هذا التصرف في المفردة القرآنية.

فرضية الدراسة:

تفترض هذه الدراسة عدة أمور أهمها:

١. أن المغايرة بين صيغ الألفاظ في القرآن الكريم تشي بقدسية النص الحكيم، وتفصح عن أسراره البلاغية، وقد شكلت هذه المغايرة منهجًا مطردًا في الذكر الحكيم له مقاصده وإيحاءاته.

٢. أن التبدل في صيغ الألفاظ لم يكن اعتباطًا أو عبثًا بل كان ليثير القارئ، ويوجه عنايته نحوه، فيدفعه لتثوير القرآن بحثًا عن أسراره ومكنوناته البلاغية.

موضوع البحث وحدوده:

تعرض هذه الدراسة لمادة صيغ الألفاظ وتبدلها بين الإفراد والجمع، وتنتقي نماذج من سورة النساء خاصة، حتىٰ نقف عليها تحليلًا وفهمًا ومنهجًا وضبطًا.

وذلك للوقوف علىٰ أظهر ملامح المنهج القرآني في هذا التبدل بين صيغ الألفاظ.

مشكلة البحث:

تسعىٰ هذه الدراسة للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما المقصود باختلاف صيغ الألفاظ وتصرف القرآن في ذلك؟
- ما يشيع هذا التبدل في الصيغ من إيحاءات وإشارات؟
- ما منهج القرآن الظاهر من هذا التبدل والتحول في المفردة القرآنية؟

أهداف البحث:

يكتسب هذا الموضوع أهميته للجوانب الآتية:

أولًا: أن الوقوف علىٰ ظاهرة التحول في بنية المفردة القرآنية ما بين إفراد وجمع إنما هو وقوف علىٰ ظاهرة أسلوبية تمثل نمطًا في السياق القرآني، ومنهجًا مطردًا فيه، له نكاته ودلالاته وأسراره.

ثانيًا: أن التسمع لبلاغات التغاير في صيغ الألفاظ درس بلاغي راقٍ، يحمل كل موضع منه مستفادًا قيمًا، يصلح أن ينصب مثالًا علىٰ مكنونات القرآن البلاغية. فأحيانًا يعذب المفرد في السياق دون الجمع، وتارة يحسن الجمع دون المفرد، وكل في موضعه له حظ وافر من البيان، ويحمل أسرار النظم في تراكيبه، وذلك للكشف عن سر إيثار المفرد موضع الجمع، أو إيثار الجمع موضع المفرد، وكل ذلك يفضي إلىٰ لطائف لا تتناهىٰ.

الدراسات السابقة:

لم يتعرض أحد -حسب علمي-بدراسة مستقلة تتناول الأسرار البلاغية لاختلاف صيغ الألفاظ بين الإفراد والجمع، من سورة النساء خاصة، وقد وقفت علىٰ دراسات تعرضت لهذا الموضوع من جوانب مختلفة ومن أهمها:

- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، للدكتور محمد أمين الخضري، وهي دراسة عميقة مؤصلة، وقد تطرق لنماذج مختلفة للإفراد والجمع في القرآن الكريم، وهي دراسة جادة، نهضت بهذا اللون من ألوان الإعجاز نهوضًا، وقد استدرك في تحليلاته علىٰ كثير ممن سبقه، فلم يكن مقلدًا ولا جامعًا، بل كان له انفرادات وإبداعات.

• العدول بين صيغ الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم، لعبد الرحمن ابن رجاء الله السلمي [(١)]، ولم يتفق بحثي وبحثه إلا بمثال واحد وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ علىٰ أن هذا المثال ذاته لم يستوعبه جيدًا، فلم يزد في طرحه علىٰ أسطر معدودة من بحثه لم تتجاوز الثمانية، علىٰ أن هناك فروقًا في النتائج والطرح.

• العدول عن السياق في القرآن الكريم، د. زاهدة عبد الله محمد [(٢)]، ولم تتفق ودراستي بمثال واحد، فقد اختص بحثي للتعرض لنماذج من سورة النساء خاصة.

ولا زال هذا الموضوع يتسع للدراسة والبحث، فهو واسع ومتنوع الدلالات البيانية، ومواطنه في القرآن كثيرة، وكل موطن منها جدير لأن يفرد في الطلب، وتحليل هذه المواطن أمر اجتهادي لا يزال يتجدد، وفهم يؤتيه الله من يشاء، وأسرار الكتاب كثيرة، لكنها علىٰ كثرتها لا تتزاحم، "ولو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أن ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله علىٰ قلبه"[(٣)].

وهناك قواعد في التطرق إلىٰ فهم الكتاب، تنزل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في تفهم الأحكام، فمن أعمل قواعد النظر التدبري لكلمات الله وبغاية الوفاء عسىٰ أن يقف علىٰ مفاتيح فهم الآي.

المناهج المستخدمة:

١. **المنهج الاستقرائي الناقص**: حيث يقوم الباحث باستقراء الآيات التي تبدلت فيها صيغ الألفاظ بين الإفراد والجمع، وذلك من سورة النساء خاصة، ثم انتقاء ما يتماشىٰ وخطة البحث.

(١) مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم اللغات وآدابها، -العدد الثاني عشر-، ربيع الآخر ١٤٣٥هـ.
(٢) مجلة التربية والعلم، مجلد (١٥) العدد (٣)، لسنة ٢٠٠٨م.
(٣) الواحدي، علي بن أحمد (٤٦٨) هـ، التفسير البسيط، تحقيق: د. محمد بن صالح الفوزان، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، ط١، ١٤٣٠هـ، ج١/ ٤٢٨.

٢. **المنهج الاستنباطي**: حيث اعتمد الباحث علىٰ استنباط الإشارات البلاغية لتبدل صيغ الإفراد في الآيات المطروحة للبحث.

٣. **المنهج التحليلي**: وذلك بدراسة هذه الآيات دراسة تحليلية بيانية للكشف عن أسرار العدول وملامحه البلاغية، ووفائه بأغراض النظم ودواعيه.

خطة البحث:

قام الباحث بتقسيم هذه الدراسة إلىٰ مبحثين بالإضافة إلىٰ المقدمة والخاتمة والتوصيات والنتائج والمراجع وذلك كما يأتي:

المبحث الأول: مبحث تمهيدي.

المبحث الثاني: اختلاف صيغ الألفاظ بين الإفراد والجمع.

المطلب الأول: وضع المفرد موضع الجمع.

المطلب الثاني: وضع الجمع موضع المفرد.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول: مبحث تمهيدي (مقدمات عامة)

أولًا: قد يعدل القرآن عن الأصل السياقي للنص، ويخالف مقتضىٰ الظاهر، ويعاور [1] بين الألفاظ، ويجاوز السنن المألوفة في اللغة، وذلك ليحقق مقاصد وغايات وإشارات، كلها مجتمعة تهمس بتناسق ظاهر بين الشكل والمضمون، وتناغم بين اللفظ والمعنىٰ، مما مهد لتكامل بياني رائع في النص الحكيم، وإذا ذهبنا نستنطق هذا العدول بين مفردات القرآن وتغايرها، لوجدناه الأليق ببلاغة النظم، والأهدىٰ إلىٰ المعنىٰ المقصود، وذلك مستفيض في كتاب الله.

ثانيًا: أنّ القرآن قد وافق سنن العرب في هذا، وكان له فضل وسبق في هذا الفن؛ وذلك بتأسيس هذا النمط وفق منهجية معينة، لا تكاد ترىٰ فيها تنافرًا بين الشكل والمضمون عند إحداث هذا العدول بين المفردات، فكان فيه لفتات بارعة، ونكات لطيفه، وأسهم هذا الفن في إظهار نوع جديد من أنواع الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو التصرف في أفانين القول، وما تلقيه من ظلال علىٰ السامع، فتحدث أثرًا لم يكن بغير هذا الاختلاف بين صيغ الألفاظ. فقد نهض القرآن بهذا اللون من الإعجاز نهوضًا، وزاده ثراءً، وترقىٰ إلىٰ ذرىٰ لا يبلغها أحد.

وأسس له بمنهجية منتظمة واضحة الدلالات، فقد انتقىٰ من المفردات الأكثر امتلاء بالمعنىٰ المقصود. وإنّ تتبع مواطن هذا الاختلاف في الصيغ فيه غنية بلاغية، وتزيد المتفحص للآي ثراءً بيانيًا يتلمس فيه دقائق الإعجاز، وعظمة البيان.

ثالثًا: إنّ ظاهرة التبدل والتحول في بنية الكلمة ظاهرة قد تطرق إليها البحث عند العلماء –قدامىٰ ومحدثون–وأسس لها أهل العربية العظماء، والتفتوا إلىٰ ما فيه من أسرار ونكات.

وسموه التغاير السياقي، أو الصرف، والعدول، والالتفات، فإن العرب

---

(١) قال ابن الأعرابي: التعاور والاعتوار: أن يكون هذا مكان هذا، وهذا مكان هذا، الأزهري، محمد بن أحمد (٣٧٠) هـ، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٣/ ١٠٥.

"يصرفون القول من المخاطب إلىٰ الغائب، ومن الواحد إلىٰ الجماعة"[١].

"فهو تحول عن المألوف من الكلام"[٢]. وسماه الفيروز آبادي التلون، وهو ذاته الالتفات[٣].

وقد عدّ ابن الأثير الرجوع من خطاب التثنية إلىٰ خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلىٰ خطاب الواحد، من الالتفات، وله أسراره ونكاته[٤].

وضرب له مثالًا: قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس: ٢٢]، وهذا عدول عن خطاب الواحد، إلىٰ خطاب الجماعة، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلىٰ خطابهم، لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويداريهم، ولأن ذلك دخل في إمحاض النصح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، فهذه دقائق لطيفه وفوائد عجيبة.

ويقول السبكي معلقًا علىٰ كلام القزويني في الإيضاح: "أهمل المصنف أمورًا كثيرة من إتيان الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، كل منها يصلح أن يكون من أبواب المعاني إذا اعتبرت فيه نكته لطيفه، منه انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر"[٥].

وسماه أبو عبيدة مجازًا، فقال: ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد، ووقع

---

(١) الزركشي، محمد بن عبد الله (٧٩٤) هـ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٧٥، ج٢/ ٢٣٣. ابن وهب، إسحاق بن إبراهيم (لم أقف علىٰ سنة وفاته)، البرهان في وجوه البيان، تحقي: د. جفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط، ج١/ ١٥٢.

(٢) طبل، حسن، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١١.

(٣) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧) هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد النجار، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ، ج١/ ١٠٩.

(٤) ابن الأثير، نصر الله بن محمد (٦٣٧) هـ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفىٰ جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥ه، ج١/ ١٠١-١٠٢.

(٥) السبكي، أحمد بن علي (٧٧٣) هـ، عروس الأفراح، مطبعة عيسىٰ البابي، مصر، ١٩٣٧م، ج١/ ٤٦٤.

معنىٰ هذا الواحد علىٰ الجميع قوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر: ٦٧]، في موضع أطفالًا، ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع علىٰ لفظ الواحد، قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤]، في موضع ظهراء. ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع الذي له واحد منه، ووقع معنىٰ هذا الجميع علىٰ الواحد، قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والناس جميع، وكان الذي قال رجلًا واحدًا [١].

وتنبه ابن قتيبة لذلك فعقد بابًا أسماه: "مخالفة ظاهر اللفظ معناه"، وذكر فيه كثيرًا مما هو من باب الخروج علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، وذكر فيه إطلاق الجمع وإرادة الواحد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦]، كان رجل من القوم لا يمالئهم علىٰ أقاويلهم في النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ويسير مجانبًا لهم، فسماه الله طائفة وهو واحد [٢].

سماه الله طائفة تعظيمًا له، فقد كان واحدًا في مقابل كثرة باطلة، فكأنما كان أمة وحده، فسماه طائفة ثناءً عليه لثباته علىٰ الحق.

ثم يستطرد ابن قتيبة ويجعل منه إطلاق الواحد وإرادة الجمع كقوله تعالىٰ: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المنافقون: ٤]، أي الأعداء، ﴿ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، أي رفقاء [٣].

وذكر ابن فارس ذلك في "الصاحبي" في سياق حديثه عن سنن العرب في أبواب منها: باب واحد يراد به الجمع، وباب الجمع يراد به واحد واثنان، والعرب تصف الجميع بصفة الواحد كقوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا ﴾ [المائدة: ٦]، فقال

(١) أبو عبيدة، معمر بن المثنىٰ (٢١٠) هـ، مجاز القرآن، تحقيق سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ، ج١/ ٩-١١.

(٢) ابن قتيبه، عبد الله بن مسلم (٢٧٦) هـ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ، ص٢١٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢١٤-٢١٥.

جنبًا وهم جماعة [١].

وهذا ابن جني يذكر في تعليله لقراءة الأعمش بإفراد (المسكن) في قوله تعالىٰ: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، قال: وحُسن أيضًا أن يريد بـ (مسكنهم) هنا: الجماعة، وإن كان قد جاء بلفظ الواحد، وذلك أنه موضع تقليل لهم، وذكر العفاء عليهم، فلاق بالموضع ذكر الواحد لقلته عن الجماعة [٢].

فانظر إلىٰ دقة هذه النكته وتصويرها لشدة هلاك القوم، وانمحاء آثارهم، حتىٰ لم يعد ما يدل عليهم سوىٰ شبح ضئيل لمسكن واحد استبد به العفاء، فكانت استعارة الواحد بدلالاته علىٰ القلة تجسيدًا لضآلة أثرهم، وتعبيرًا عن شدة غضب الله، وعظيم انتقامه [٣].

وأنهم لما هلكوا في وقت واحد، فكأنهم كانوا في مسكن واحد [٤]، ثم ذكر ابن جني مثالًا آخر وهو قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾، أي: أطفالًا. وحسن لفظ الواحد هنا؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان، وتحقير لأمره، فلاق به ذكر الواحد لذلك، لقلته عن الجماعة [٥].

---

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس(٣٩٥) هـ، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق عمر طباع، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٦١-١٦٢.

(٢) ابن جني، عثمان بن جني (٣٩٢) هـ، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، تحقيق علىٰ النجدي، ١٩٩٩م، د.ط، ج ٢/ ٢٦٦، وانظر: سبط الخياط، عبد الله بن علي (٥٤١) هـ، المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش، رسالة دكتوراه، عبد العزيز السَّبر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٤ه، ص٧٤٢، ومحيسن، محمد بن محمد سالم (١٤٢٢) هـ، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، مطبعة الحسين، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ج٣/ ٢٢٩.

(٣) الخضري، محمد الأمين، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مطبعة الحسين، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص١٩.

(٤) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٤٥) هـ، البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، درا الفكر، بيروت، ١٤٢٠ه، ج٩/ ٤٤٧.

(٥) ابن جني، المحتسب، ج٢/ ٢٦٦.

فكأن الإفراد تصغير الشأن وتقريبه [1].

رابعًا: إن التصريف في الخطاب، والتنقل في ألفاظه، والعدول به إلىٰ الأفصح والأليق ببلاغة النظم، ليوقفنا علىٰ مدىٰ بلاغة القول؛ ذلك أن ألفاظ القرآن هي كرائم كلام العرب وأسمىٰ ما فيه، فكان لهذا التبدل والتصرف في القول أثر قوي في نفس السامع، وحثه علىٰ استبطان النص، والتعمق فيه. فهو عدول إلىٰ الصورة الفصيحة الصحيحة.

فهذا التحول في البنية له أغراضه البيانية، وفيه إيقاظ للسامع، وصرف غايته نحو المراد من هذا التبدل والتحول في المفردة القرآنية، للوقوف علىٰ مآلات القرآن ومقاصده من ذلك، فقد راعىٰ القرآن في ذلك أسسا أدبية، وذوقية ونفسية في تنقلاته في المفردة القرآنية بين الإفراد والجمع، لنكات سوغت له مثل هذا العدول عن ذلك الأصل السياقي المعروف، فما غوير النظم، وما خولف مقتضىٰ الظاهر إلا لدلالات مقصودة. "وهو من محاسن الكلام، ووجه حسنه هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلىٰ أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه علىٰ أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بلطائف"[2].

وكأن القرآن يراعي في تبدلاته وتحولاته الأساس النفسي في دلالاته، فوظف اللغة مختارًا منها ما له الأثر الأكبر في نفس سامعه وقارئه، وذلك بما أشاع من دلالات لغوية أحدثت تثويرًا للنص القرآني، وجذبت السامع إليه، فتعمق في بحره، لجني جواهره.

خامسًا: أن النظم القرآني يضع المناسبة والغرض المعنوي فوق الأغراض اللفظية، فينتقي منها ما كان أوفىٰ بالغرض، وأكثر امتلاءً بالمعنىٰ، وكله فصيح لا ريب، فقد وضع القرآن الألفاظ موضعها الأخص والأوفىٰ.

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٣٩٣) هـ، التحرير والتنوير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٥/ ١٠٣.

(٢) الصعيدي، عبد المتعال (١٣٩١) هـ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، ط١٧، ٢٠٠٥م، ج١/ ١٤٢.

وفي هذا التصريف والتحول في الخطاب إنما نرمق بلاغة النص القرآني، ونرتوي من سماوته، ونحلق في فضائه، بحثًا عن مكنوناته البلاغية، ونكاته البيانية.

وهذه الظاهرة دالة علىٰ ثراء لغة القرآن، وقدرته علىٰ تطويع صيغ الألفاظ، لاستيعاب كثير من المعاني، وتحقيق كثير من الدلالات.

وهو من السمات الأسلوبية التي تصنع التأثير، وتحدث بناءً أسلوبيًا يوجه عناية القارئ إليه، مستعملًا التصرف في صياغة الألفاظ، لإحداث جماليات فنية رائعة في النص القرآني قد تخالف السنن اللغوية في النمط المعتاد؛ لأنه تصرف في الهيكل البنيوي للمفردة يشيع في ظلال المفردة أغراضًا فنية راقية، قد لا تحصل بغير هذا التصرف.

"وهكذا تجد القرآن يفتن في أداء المعنىٰ الواحد بألفاظ وطرق متعددة، فكان هذا فنًا من فنون إعجازه الأسلوبي" (١).

سادسًا: وهو من بدائع القرآن وأسراره التي بمثلها أعجز البشر عن محاكاته، بل سلموا لروعة أثره، فكان دليلًا ساطعًا علىٰ ربانيته، مما كسىٰ القرآن ثوبًا من التعظيم والإجلال، فكل تحول فيه له إيحاءاته ودلالاته الخاصة يشي بها حسن التتبع والنظر.

فكان هذا التحول والتبدل في المفردة القرآنية دليلًا علىٰ شجاعة العربية، "والشجاعة هي الإقدام؛ ذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات" (٢).

"وهو من أفانين الكلام، وذلك بنقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلىٰ طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، لأن ذلك التغيير يجدّد

(١) الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (١٣٦٧) هـ، مناهل العرفان، مطبعة عيسىٰ البابي، مصر، ط٣، د.ت، ج٢/ ٣٢٢.

(٢) ابن الأثير، نصر الله بن محمد (٦٣٧) هـ، المثل السائر، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ٢/ ١٦٨، وابن الأثير، الجامع الكبير، ص١/ ٩٨.

نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلىٰ ما انتُقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدودًا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصىٰ كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال" (١).

ذلك أن النص القرآني يتنقل بين ضروب المعاني كيفما شاء، وينتخب منها ما يشاء، فينتقي المعنىٰ الأليق والأهدىٰ إلىٰ المقصود، كل ذلك يمر بسلاسة وصمت عجيب، ثم يترك للمتأمل الوقوف علىٰ أسرار النظم ودقة تراكيبه.

سابعًا: يستطيع الناظر في كتاب الله تعالىٰ أن يتلمس السر الإلهي في كل مفردة من مفرداته، ويستجلي روعة البيان الذي فيه. فقد أنبأت المفردة فيه بتحولاتها الراقية بأسمىٰ إعجاز وأجمل بيان. فقد جاءت مفرداته وفق منهجية تقوم علىٰ ضوابط منتظمة. روعي فيها تحقيق الهدف وذوق القارئ. "فامتاز القرآن في صياغته المصطلحات بخصائص فنية ولغوية وشعورية، ولم تكن ألفاظه جامدة، أو رموزًا متحجرة، وإنما هي بناء جمالي يضرب بجذوره في نفوس الناطقين بلغته، فيشدهم إليه في تعاطف وتفاعل" (٢).

"فانتقاء اللفظ القرآني كأنه تجسيد لمعنىٰ الكلمة وتفسير لها، بجرسه وعذوبته ووقعه، يقع في النفس وكأنه أوحي إليها شيء ينبعث من تلك الحروف، وثنايا تلك المقاطع، فكلمات القرآن كأنما هي رسل تُنزل الآية منزلها في النفس، وتؤتي ثمارها في العقل، فتتحرك لها الأعضاء متفاعلة مع النص القرآني، فتقشعر لها الأبدان، وتذرف منها الدموع" (٣).

وكل تحول في بنية المفردة القرآنية من إفراد إلىٰ جمع والعكس يصلح أن ينصب مثالًا علىٰ سماوة القرآن ورفعته، وينتصب كذلك شاهدًا بحق علىٰ إعجازه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١/ ١٠٩.

(٢) البصير، كامل، المنهج القرآني في صياغة المصطلحات، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠م، ص٧٨-٨١.

(٣) جبران، لبيب محمد، عناية علماء التفسير ببيان غريب القرآن الكريم، درا الفاروق، عمّان، ط١، ٢٠١٢م، ص٣٣.

وإن هذا التحول في المفردة علىٰ سلاسته وسهولته، إلا أنّ به تعددًا في دلالات النص، فكم اتسعت المعاني بهذا التبدل في الألفاظ، ذلك أن الألفاظ خدم للمعاني، وتسعىٰ لتكثير دلالاتها.

وإن الاقتدار علىٰ تصريف الكلام بهذا النمط المعجز مدعاة للثناء علىٰ النص القرآني الحكيم.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

اختلاف صيغ الألفاظ بين الإفراد والجمع ودلالاتها البلاغية

تمهيد: إن الاختلاف في التعبيرات القرآنية من بلاغات القرآن وتناسبه وأحسنيته، فالله نزل أحسن الحديث، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣].

وإن هذا التبدل والتلون في بنية الكلمة القرآنية واختلاف صيغها بين إفراد وجمع لهو غاية الحسن فيه، وغاية جمال النسق والنظم كذلك، فقد خطّ القرآن طريقًا بينًا واضحًا في طرحه للمفردات وتبدلها وتحولها بما يتناسب والسياقات، منسجمًا مع ألفاظه ومعانيه، متناسقًا بين الشكل والمضمون، وخطّ كذلك سبيل العلم والدرس لموضوع من أكثر الموضوعات دلالة علىٰ سماوة القرآن في استيعاب المفردات، وتبدلها وفق منهج قويم واضح.

وتنتخب هذه الدراسة نماذج من سورة النساء، نصبتها أمثله دالة علىٰ معالم النهج القرآني في انتقاء المفردة المناسبة ما بين إفراد وجمع، وتحولها وفق متطلبات النظم وإيحاءات السياقات.

وفي نصب هذه الأمثلة إنما نتسمع لخصائص النظم، ونتتبع إيحاءات نسق التراكيب، وما تفضي إليه من أغراض وبلاغات، فقد بلغ القرآن النّخب في ذلك.

المطلب الأول: وضع المفرد موضع الجمع:

وهو خروج عن ظواهر الأحوال، تتنامىٰ به المعاني وتتكاثر، لغايات بلاغية يتكشف عنها حسن التتبع والنظر.

المثال الأول:

النص القرآني: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء: ٤].

موطن الشاهد: ﴿نَفۡسٗا﴾.

فأفرد (نفسًا)، وكان مقتضىٰ الظاهر وما يتلائم والسياق أن يجمع التمييز لجمع المميز.

فما السر في إفرادها وحقها الجمع؟

آراء المفسرين:

- قال الطبري: كيف وحدت (النفس) والمعنىٰ للجميع؟

قيل: أما نقل فعل النفوس إلىٰ أصحاب النفوس، فإن ذلك مستفيض في كلام العرب: ضقت بهذا الأمر ذراعًا، وذرعًا.

وكذلك وحّد (النفس) إذ كانت (النفس) مفسرة لموقع الخبر. ويجوز في هذا الموضع الجمع والتوحيد، لأنه منسوب إليك وإلىٰ من تخبر عنه، فاكتفىٰ بالواحد عن الجمع لذلك، ولم يذهب الوهم إلىٰ أنه ليس بمعنىٰ جمع، لأن قبله جمع.

قال أبو الجعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن (النفس) وقع موقع الأسماء التي تأتي بلفظ الواحد، مؤدية معناها إذا ذكر بلفظ الواحد، وأنه بمعنىٰ الجمع عن الجميع (١).

- فنصبت علىٰ التمييز والمعنىٰ: طابت أنفسهن لكم عن شيء من الصداق، بنقل الفعل من الأنفس إليهن، فخرجت النفس مفسرة، كما قالوا: أنت حسن وجهًا، والفعل في الأصل للوجه، فلما حُول إلىٰ صاحب الوجه، خرج الوجه مفسرًا لموقع الفعل، فوحّد النفس لأن المراد به بيان موقع الفعل، وذلك يحصل بالواحد، ولو جمعت لكان صوابًا كقوله: (الأخسرين أعمالًا) (٢).

- فلفظها (نفسا) واحد ومعناها جمع، والعرب تفعل ذلك كثيرًا. وقال بعض نحاة البصرة: إذا ما دنا الليل المضي بذي الهوىٰ.

والهوىٰ مصدر والمصادر لا تجمع (٣).

(١) الطبري، محمد بن جرير (٣١٠) هـ، جامع البيان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٧/ ٥٥٧-٥٥٨، وانظر: البغوي، الحسين بن مسعود (٥١٦) هـ، معالم التنزيل، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٨٩م، ج٢/ ١٦٣.

(٢) الرازي، محمد بن عمر (٦٠٤) هـ، مفاتيح الغيب، درا الفكر، ط١، ١٩٨١م، ج٩/ ١٨٨.

(٣) الثعلبي، أحمد بن محمد(٤٢٧) هـ، الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م، ج٣/ ٢٥٠.

- فوحدها لأنه لا يلبس أن النفس لهن، لأنهن أنفس، ولو جمعت لجاز (١).

أي: جاء بالتمييز هنا مفردًا، وإن كان قبله جمع، لعدم اللبس، إذ من المعلوم أن الكل لسن مشتركات في نفس واحدة (٢).

فلما أسند إليهن احتيج إلىٰ ذكر النفس تمييزًا وبيانًا للجنس المراد منهن (٣).

فوضع الواحد موضع الجمع لأن الغرض الدلالة علىٰ الجنس، والواحد يحصل منه المراد في ذلك (٤).

- فجاء بلفظ (نفسًا) مفردًا مع أنه تمييز نسبة (طبن) إلىٰ ضمير جماعة النساء، لأن التمييز اسم جنس نكرة يستوي فيه المفرد والجمع، وأسند الطيب إلىٰ ذوات النساء ابتداء، ثم جيء بالتمييز للدلالة علىٰ قوة هذا الطيب علىٰ ما هو مقرر في علم المعاني من الفرق بين: واشتعل الرأس شيبا، وبين: اشتعل شيب رأسي، ليعلم أنه طيب نفس لا يشوبه شيء من الضغط والإلجاء (٥).

- فالتمييز إذا استوىٰ فيه الواحد والجمع لكونه معلومًا منهما المعنىٰ علىٰ

---

(١) النيسابوري، الحسن بن محمد (٨٥٠) هـ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ج٢/ ٣٤٩.

(٢) الحلبي، أحمد بن علي(٧٥٦) هـ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، د.ط، د.ت، ج٣/ ٥٧٣.

(٣) زادة، محمد بن مصلح الدين (٦٨٥) هـ، حاشية شيخ زاده علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٣/ ٢٦١.

(٤) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١) هـ، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم المرجان، العراق، وزارة الإعلام، ١٩٨٢م، ج٢/ ٦٩٦. وانظر: الحنفي، إسماعيل بن محمد(١١٩٥) هـ، حاشية القونوي علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م، والرومي، مصطفىٰ بن إبراهيم (٨٨٠) هـ، حاشية ابن التمجيد علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ج٧/ ٢٩، وانظر: النسفي، عبد الله بن أحمد (٧١٠) هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١/ ٣٣٠، والزمخشري، محمود بن عمر(٥٣٨) هـ، الكشاف، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م، ج٢/ ١٧، وأبو السعود، محمد بن محمد العمادي (٩٨٢) هـ، إرشاد العقل السليم، مكتبة الرياض الحديثة، د.ط، د.ت، ج١/ ٦٤٧، وابن هشام، عبد الله بن يوسف (٧٦١) هـ، شرح شذور الذهب، تحقيق عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، د.ت، ج١/ ٣٣٣.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤/ ٢٣٢.

حد، نحو قولهم: فلان أحسن القوم عينًا، لأنه يعلم أن القوم لم يشتركوا في عين واحدة، والآية علىٰ هذا، فلا يحتاج فيها إلىٰ الجمع [(١)].

فحسن الإفراد من أجل تذكير الضمير [(٢)].

- فإذا وقع التمييز بعد جمع منتصب عن تمام الكلام فلا يخلو إما أن يكون موافقًا لما قبله في المعنىٰ، أو مخالفًا له، فإن كان الأول وجبت مطابقة التمييز لما قبله نحو: كرم الزيدون رجالًا، كما يطابقه خبرًا وصفة وحالًا.

وإن كان الثاني: فإما أن يكون مفرد المدلول أو مختلفه، فإن كان مفرد المدلول وجب إفراد التمييز كقولك في أبناء رجل واحد: كرم بنو زيد أبا أو أصلا، أي أن لهم جميعهم أبا واحدًا متصفًا بالكرم.

وإن كان مختلف المدلول: فإما أن يلبس إفراد التمييز لو أفرد أولا فإن ألبس وجبت المطابقة: نحو: كرم الزيدان آباء، أي أن لكل واحد أبا غير أب الآخر يتصف بالكرم، ولو أفردت هنا لتُوُهم أنهم كلهم بنو أب واحد، والغرض خلافه، وإن لم يُلبس جاز الأمران: المطابقة والإفراد، وهو الأولىٰ وجاءت عليه الآية الكريمة. وحسّن الإفراد ههنا أيضًا ما تقدم من مُحَسن تذكير الضمير وإفراده في (منه) والمعنىٰ: فإن طابت كل واحدة نفسًا [(٣)].

- ويرىٰ النحاة أن الإفراد في هذا النوع أولىٰ من الجمع، لأنه أخف، والجمعية مفهومة مما قبل.

---

(١) الراغب، الحسين بن محمد (٥٠٢) هـ، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق عادل الشّدي، مدار الوطن للنشر، ط١، ٢٠٠٣م، ج٢/ ١٠٩٨.

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج٣/ ١٧٥. وانظر: النيسابوري، غرائب القرآن، ج٢/ ٣٤٩.

(٣) ابن عادل، عمر بن علي (٧٧٥) هـ، اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٦/ ١٧٤-١٧٥، والخفاجي، أحمد بن محمد (١٠٦٩) هـ، حاشية الشهاب علىٰ البيضاوي، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٣/ ٢٠٦، والألوسي، محمود شهاب الدين (١٢٧٠)هـ، روح المعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٤م، ج٢/ ٤٠٩، والحلبي، الدر المصون، ج٣/ ٥٧٤، والأنباري، عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧) هـ، أسرار العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص١١٣.

ومن المميزات المباينة لما قبلها في المعنىٰ ما يلزم إفراد لفظه لإفراد معناه، كقولك في أبناء رجل واحد، طاب بنو فلان أصلًا، وكرموا أبا، وكذا إفراد التمييز إذا كان مصدرًا ولم يقصد اختلاف أنواعه، كقولك: زكا الأتقياء سعيًا [1].

- فالتمييز إذا لم يسم عددًا معلومًا كالعشرين والثلاثين جاز تبيينه بالواحد للدلالة علىٰ الجنس، وبالجمع إذا وقع الإلباس، ولا إلباس في هذا الموضع لقوله: (فإن طبن لكم) [2].
- ومما جاء في الشعر علىٰ لفظ الواحد والمراد به الجمع، قول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا ❊❊ فإن زمانكم زمن خميص [3]

أراد: في بطونكم، فاكتفىٰ بالواحد عن الجمع، لأن إضافة الجمع تدل علىٰ أن البطن بمنزلة البطون، ومثله: (نفسا) [4].

موازنة وترجيح:

إن المتأمل في أقوال المفسرين والنحاة في تحليلهم لهذا النص الكريم يمكنه تسجيل الملاحظات الآتية:

أولًا: لم يكن تحليل المفسرين لهذا النص الكريم مرضيًا، وقد تكلفوا يسيرًا، فوقفوا عند ظاهر النص، ولم يتعرضوا إلىٰ دلالات إفراد النفس البلاغية، وعن السر من إيثار الإفراد علىٰ الجمع.

---

(١) الجياني، محمد بن عبد الله (٦٧٢) هـ، شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق عبد الرحمن السيد، دار هجر، ط١، ١٩٩٠م، ج٢/ ٣٨٥.

(٢) ابن السرّاج، محمد بن السري (٣١٦) ه، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥م، ج١/ ٢٢٧.

(٣) هذا البيت من شواهد سيبويه التي لم يعرف قائلها وهو في كتاب سيبويه، ١/ ٢١٠، والمقتضب لابن المبرد، ٢/ ١٧٢، والمخصص لابن سيدا، ١٥/ ٥٦، وخزانة الأدب لعبد القاهر البغدادي، ٧/ ٥٥٩، ويبدو أن أول من استشهد به هو سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ، ولم يذكر اسم قائله، وباقي الكتب أخذته عن سيبويه والله أعلم.

(٤) ابن الوراق، محمد بن عبد الله (٧٣١) هـ، علل النحو، تحقيق محمود الدرويش، مكتبة الرشيد، السعودية، ط١، ١٩٩٩م، ج١/ ٥١٦.

ثانيًا: أن التفاسير عامة لم تلتفت إلىٰ دلالة إيثار الإفراد وهجر الجمع، فلم يطلوا علىٰ الحق فيه، ولم يلحظهم التوفيق في الكشف عن سر الإفراد. وليس في عملهم استبطان لسر النظم.

ثالثًا: اتبع المفسرون في تحليلهم لهذا النص الكريم النحاة في قواعد صنعتهم، دون تمعن في بلاغات هذا الإفراد دون الجمع، فلم يتوصلوا إلىٰ أسرار السياقات. فلم يكن اختيار القرآن لهذا الإفراد عبثًا أو اعتباطًا، إنما هو مقصود ومراد وله دلالات وأسرار، يكشف عنها حسن النظر والتتبع إلىٰ أدبار القول، فألفاظ القرآن لها أدبار، وهي المعاني، والمعاني لها أدبار وهي الأسرار، وهذا هو التدبر المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٢٩].

رابعًا: لم يتعد قول المفسرين في هذا الإفراد أنه جائز عند النحاة لأمن اللبس، فهو إفراد يدل علىٰ الجمع، لكن هذا القول لم يكن كاشفًا عن النكات البلاغية في هذا الإفراد، فكان تحليلهم جامدًا لا روح فيه، فلما عكفوا علىٰ صنعة النحاة، حجبوا أنفسهم عن النظر في أسرار الإفراد دون الجمع.

خامسًا: ثم زعموا أنه إنما جاء الإفراد لأنه أخف من الجمع، ولا أرىٰ في هذا تعليلًا مرضيًا، فكل إفراد هو أخف من الجمع، فهل تفرد الجموع كلها لتصير أخف وأليق.

سادسًا: دأب المفسرون علىٰ الاستشهاد بصحة الإفراد عن الجمع بقول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا.

مع أن فيه دلالة خفية علىٰ القصد في الأكل، والبعد عن الإسراف، وكأنهم جميعًا إنما يأكلون في بطن واحدة فأفرد البطن لدلالة التقليل، لكنهم استشهدوا به لدلالة الإفراد علىٰ الجمع فقط، دون ذكر الدلالات البيانية.

سابعًا: "ولعل القرآن أراد من هذا الإفراد أن يستثير في الرجال دوافع العفة عن أموال النساء، ويكرّه إليهم الجور علىٰ حقهن في المهور، ويسد أبواب الاحتيال علىٰ هضمهن هذا الحق، معلقًا إباحة أخذ شيء من هذه المهور علىٰ طيب أنفسهن، ولما كان شأن النساء بما فيهن من طبيعة الحرص علىٰ أموالهن أن لا تطيب أنفسهن إلا

نادرًا، كشف القرآن عن دخائل أنفسهن، وأفصح عن قلة من يجود بمهره راضيًا من النساء، خاصة أن للمهر في نفس المرأة منزلة ليست لسائر أموالها، وكان التعبير بإن الشرطية الدالة علىٰ قلة احتمال طيب الأنفس، وإفراد النفس إيماء إلىٰ قلة من تطيب بذلك نفسه منهن" [1].

ثامنًا: فكان لإيثار الإفراد إرادة القلة، أي: قليل من النساء من تطيب نفسها بشيء من مهرها، وفي الآية كشف عن طبيعة المرأة وحرصها علىٰ مالها، فيجب التنبه إلىٰ ذلك، ومراعاته في التعامل معهن. كل ذلك يوحيه هذا الإفراد، ويشيع دلالات كثيرة لا تأتي بغيره.

تاسعًا: استبدل القرآن الإفراد بالجمع [2] وبصمت عجيب وذلك لغرض رائع، وهدف بديع مراعيًا في ذلك إحساس المرأة فلم يخدشه، فقد كشف عن حقيقة حب المرأة للمال وحرصها عليه بحياء عجيب، وبتبدل في المفردة يسير، لكنه يحمل في ثناياه أعجب وأغزر المعاني، تنأىٰ عن حمل هذه المعاني جمل طوال.

عاشرًا: ألمح القرآن بهذا التبدل إلىٰ طبيعة المرأة إلماحًا، ثم يترك للمتأمل التبحر في معانيه ودلالاته. فالله أعلم بما خلق، فجبل المرأة علىٰ ذلك الحرص، ثم جاء ينصفها ويتماشىٰ مع ما تميل إليه، دون تعنيف أو تجريح، وكأنه يوصي بحق هذه الضعيفة أن تمتد إليه يد الإثم والغدر. ففيه تحذير خفي للرجال.

الحادي عشر: كان في هذا التبدل في بنية الكلمة القرآنية، مظهرٌ من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وقد همس لنا بتبدله هذا بدلالات رائعة، وإشارات راقية، تعجز عنها جمل طوال. كل ذلك بحياء وأدب يجلل المفردة القرآنية.

المثال الثاني:

النص القرآني: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ

(١) الخضري، الإعجاز البياني، ص٦٤-٦٥.

(٢) الباء تلحق بالمتروك، ومنه قوله تعالىٰ: (قال أتستبدلون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير)، فتركوا الخير وأخذوا الذي هو أدنىٰ، ومنه قوله تعالىٰ: (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب)، ومنه قولهم: استبدلت الثوب الجديد بثوب قديم.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

موطن الشاهد: ﴿رَفِيقٗا﴾.

حيث أفردت، غير أن التناغم مع السياق العام للآية يتطلب الجمع، لكن أسرار النظم استدعت هذا التحول من الجمع إلىٰ الإفراد، فما دواعيه في ذلك؟

وهذا ما تحاول تتبعه هذه الدراسة، للوقوف علىٰ أسرار النظم في مظانه.

آراء المفسرين:

- أن (الرفيق) في لفظ واحد بمعنىٰ الجمع كما قال الشاعر:

دعون الهوىٰ ثم ارتمين قلوبَنا ** بأسهم أعداء، وهن صديق (١).

بمعنىٰ: وهن صدائق (٢).

- أن (الرفيق)، كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه، ويجوز أن يكون مفردًا، بين فيه الجنس من باب التمييز (٣).

فهو مما يستوي واحده وجمعه (٤).

- وقيل (رفيقا) منصوب علىٰ الحالية، ينوب عن رفقاء، لأن الجمع والواحد فيه سواء، ويجوز أن يكون منصوبًا علىٰ التمييز (٥).

والمعنىٰ علىٰ الحالية أنهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين (٦).

- وقال أبو عبيدة: رفيق: بمعنىٰ رفقاء، والعرب تلفظ بلفظ الواحد والمعنىٰ

---

(١) البستاني، كرم، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ٣١٥، وسلام، محمد بن سلام (٢٣٢) هـ، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، ج٢/ ٤١١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٨/ ٥٣٢.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج٢/ ١٠٣، ومصلح الدين، حاشية زاده علىٰ البيضاوي، ج٣/ ٣٥٨، والخفاجي، حاشية الشهاب علىٰ البيضاوي، ج٣/ ٣٠٢.

(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج٥/ ٣٢٢، والحلبي، الدر المصون، ج٤/ ٢٥.

(٥) الرومي، حاشية ابن التمجيد علىٰ البيضاوي، ج٧/ ٢٢٢، والحنفي، حاشية القونوي علىٰ البيضاوي، ج٧/ ٢٢٢.

(٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١/ ٧٣١.

يقع علىٰ الجميع [1].

- فوحد الرفيق لأنه صفة الجمع، لأن الرفيق والرسول والبريد تذهب به العرب إلىٰ الواحد وإلىٰ الجمع، قال تعالىٰ: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦]، ولا يجوز أن يقال: حسن أولئك رجلًا، وبالجملة فهذا إنما يجوز في الاسم الذي يكون صفة، أما إذا كان اسمًا مصرحًا مثل رجل وامرأة لم يجز [2].
- فهو تمييز والمعنىٰ: ما أحسنهم حسنوا من جنس الرفقاء [3].
- فاكتفىٰ بالواحد عن الجمع لفهم المعنىٰ، وحسّن ذلك كونه فاصلة [4].
- أن فعيلًا كثيرًا ما تستعمله العرب في معنىٰ الجماعة كما جاء في التنزيل ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾. ويكون واحدًا وجمعًا في الصفات مثل: صديق ورفيق [5].
- فلا خلاف بين أهل اللسان العربي في وقوع المفرد وإرادة الجمع، لدلالة السياق فيها علىٰ الجمع [6].

موازنة وترجيح:

من خلال النظرة الموازنة بين أقوال المفسرين نلمح ما يأتي:

أولًا: اقتصد المفسرون وأقلّوا في تحليلهم لهذا النص الكريم.

ثانيًا: علىٰ الرغم من إيجاز المفسرين في تحليل الإفراد بدل الجمع، لم يقفوا

---

(١) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج١/ ١٣١، والبغوي، معالم التنزيل، ج٢/ ٢٤٧.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠/ ١٧٩-١٨٠.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥/ ١١٦.

(٤) ابن عطية، عبد الحق بن غالب (٥٤٦) هـ، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ج٢/ ٧٦، وأبو حيان، البحر المحيط، ج٣/ ٣٠١، الطيبي، الحسين بن عبد الله (٧٤٣) هـ، حاشية الطيبي علىٰ الكشاف، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، رسالة دكتوراه، صالح الفايز، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ، ج٢/ ١٤٣، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج٦/ ٤٨٠، والألوسي، روح المعاني، ج٣/ ٧٥.

(٥) ابن الشجري، هبة الله بن علي، أمالي ابن الشجري، مطبعة المدني، مصر، ط١، ١٩٩٢م، ج١/ ٢٦٦، وانظر: ج٩/ ١٣٦.

(٦) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد (١٣٩٣) هـ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ج١/ ١٤-١٥.

علىٰ دلالاته وأسراره.

ثالثًا: لا زال المفسرون يعكفون علىٰ أقوال النحاة، ويترسمون خطاهم، وقد استنهجوا سبيلهم، كما نلمس ذلك في اختياراتهم في توجيه اختيار الإفراد علىٰ الجمع.

رابعًا: عكوف المفسرين علىٰ صنعة النحاة منعهم من تتبع الدلالات البيانية لإيثار الإفراد بدل الجمع، فإن هذا التحول لم يكن دون قصد، بل له أسرار ونكات.

خامسًا: دأب المفسرون والنحاة علىٰ القول باستواء الواحد والجمع في مثل هذه التعبيرات، وهذا قول لا سداد له، ولا تظهر فيه ملامح التحليل البلاغي للنص القرآني المعجز.

وإن اكتفاءهم بالقول باستواء الإفراد والجمع حرمهم أعظم أسرار الكتاب في مثل هذه التحولات البنيوية في الكلمة القرآنية، فإن هذا التحول الذي يطرأ علىٰ المفردة القرآنية، مع مراعاة المعاني الدقيقة لهو البلاغة بعينها، فجاء النظم القرآني فريدًا في سبكه ولفظه ومعناه، وكان فيه مواءمة ظاهرة بين الشكل والمضمون.

ثم إن القول باستواء المفرد والجمع في مثل هذه الآي أخشىٰ أن يكون فيه تعريض بالنص القرآني وأنه يبدل ألفاظه دونما قصد وإرادة، وحاشاه ذلك، فما كان هذا التبدل إلا عن مراد وقصد يدركه كل من أعمل الفكر والنظر بغاية الوفاء.

سادسًا: إن القائلين بأن الإفراد إنما جاء حسنا كونه فاصلة، وحاشا للقرآن أن يغير مواقع الألفاظ وهيئاتها، ويعمد إلىٰ إفراد دون جمع لتحقيق هذا المطلب.

وإذا تأملنا المعاني والأغراض من إيثار المفرد علىٰ الجمع أدركنا أن القرآن قد أحكم نسق الألفاظ، فاختار منها ما تتواثب فيه المعاني.

"فلا تحسن المحافظة علىٰ الفواصل لمجردها، إلا مع بقاء المعاني علىٰ سردها، علىٰ المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور إلىٰ مؤداه، فليس من قبيل البلاغة" [(١)].

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١) هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٤م، ج٣/ ٣٥٩.

سابعًا: لقد تتبعت أقوال المفسرين في مظانها فلم أقف على شيء مرضٍ في تحليل هذا النص الحكيم، ولم تتجاوز عباراتهم عبارة النحاة وأهل اللغة، ولم يوجهوا هذا التحول بلاغيًا وبيانيًا، فمنهجية القرآن في طرحة للمفردات تأبى إلا أن يكون لها أغراضٌ بيانية فائقة ورائعة، فسهام المفسرين لم تكن نافذة مسددة، فالتفاسير عامة لم تلتفت إلى الدلالة من إيراد الإفراد بدل الجمع.

ثامنًا: إن مزيدًا من التعمق والنظر في أعطاف هذه الآية قد يوقفنا على السر في اختيار الإفراد بدل الجمع في موضعه، عسى أن نسترشد إلى الرأي السديد في إيثار المفرد على الجمع. فيكون منهجًا مطردًا في فهم مثل هذا التحول في بنية الكلمة. فهو باب واسع من أبواب الفهم في أسرار السياقات، يتجلى فيه نهج القرآن في طرحه للمفردات.

"فقد صفت الأنفس، وطابت الأرواح، واتحدت القلوب، فصار الرفقاء رفيقًا واحدًا، هذا ما يومئ إليه الإفراد" [1].

فهؤلاء الأخيار الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اتحدت نفوسهم حتى صارت كأنما هي نفس واحدة، إشارة إلى غاية التآلف والحب الذي جمعهم، فكأنما هم جميعًا في ظلال قلب واحد جمعهم جميعًا. وهذا يومئ إلى شدة التوحد الذي بينهم، وشدة الألفة التي عمتهم، فكأنما ذابوا جميعًا في نفس واحدة. هذا ما يشير إليه الإفراد بدل الجمع، فهم في الجنة امتزجت أرواحهم وصفت نفوسهم حتى صاروا رفيقًا واحدًا.

تاسعًا: يكاد يتفلت هذا المعنى لدى من قال باستواء الواحد والجمع، أو قال بحسنه لوقوعه في الفاصلة.

عاشرًا: هكذا تتجلي سماوة القرآن ورفعته في انتقائه للمفردات.

(١) الخضري، الإعجاز البياني، ص٤٢.

المثال الثالث:

الـنص القـرآني: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ [النساء: ١٠١].

موطن الشاهد ﴿ عَدُوًّا ﴾.

فقد آثر القرآن إفرادها، علىٰ الرغم أن السياق جمع، ويناسبه الجمع، فما هي مسوغات القرآن في اختيار المفرد بدل الجمع؟ ويتوخىٰ هذا البحث النظر في دواعي السياق ومقتضياته للوقوف علىٰ دلالة الإفراد بدل الجمع، والحكمة التي يقصدها القرآن من هذا التحول، وذلك من خلال تتبع آراء أهل التفسير والبيان، واستنهاج سبيلهم، علنا نقف بهم علىٰ أحقية الإفراد بدل الجمع.

آراء المفسرين:

- أفرد (عدوًا) وإن كان المراد به الجمع؛ لأن العدو يستوي فيه الواحد والجمع، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٧](١).
- فأفرد (عدو) وإن كان المراد به جمعًا لأحد وجهين: إما اعتبارًا بلفظ (بعض) فإنه مفرد، وإما لأن (عدوًا) أشبه المصادر في الوزن كالقبول ونحوه، فوحِد وقبله جمع لأنه بمعنىٰ المصدر، وتقديره: ذوي عداوة(٢).

فأخبر عن (قوم) بلفظ (عدو) وهو مفرد، لأن فعولًا بمعنىٰ فاعل يكثر في كلامهم أن يكون مفردًا مذكرًا غير مطابق لموصوفه كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء: ١٠١]، ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ويجمع بكثرة علىٰ أعداء، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [فصلت:

---

(١) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج٦/ ٦٠٧، ورضا، محمد رشيد (١٣٥٤) هـ، تفسير المنار، مطبعة المنار، ط١، ١٣٢٨ه، ج٥/ ٣٦٥.

(٢) الحلبي، الدر المصون، ج١/ ٢٩٠.

١٩](١).

• ويعلل القرطبي توحيد (عدو) موضع الجمع فيقول عند قوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، كيف قال عدو ولم يقل أعداء، ففيه جوابان: أحدهما: أن بعضًا وكلًا يخبر عنهما بالواحد علىٰ اللفظ، وبالجمع علىٰ المعنىٰ، وذلك في القرآن. قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥] علىٰ اللفظ، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧] علىٰ المعنىٰ. والجواب الآخر: أن عدوًا يفرد في موضع الجمع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠](٢).

• وفيه دليل علىٰ أن الجماعة قد يجوز أن يخبر عنهم بلفظ الواحد، يقال عدو للواحد والاثنين والجماعة، والمذكر والمؤنث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١](٣).

• فهي في موضع أعداء، وفيه توحيد المعنىٰ الذي تدور عليه معاداة هؤلاء للمؤمنين، إذ هم متفقون علىٰ هذه المعاداة، وهم يد علىٰ من سواهم لاتفاق كلمتهم، وأنهم كشيء واحد لقوة تضامهم وتوافق كلمتهم علىٰ المؤمنين (٤).

موازنة وترجيح:

ولدىٰ تأمل أقوال المفسرين في تعرضهم لهذه المفردة نقف علىٰ ما يأتي:

أولًا: بعد تتبعي لكتب التفسير لاحظت أن أكثرها لم يتعرض أصلًا لتحليل هذا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥/ ١٦١-١٦٢.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد (٦٧٧) هـ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م، ج١/ ٤٧٦.

(٣) ابن سيده، علي بن إسماعيل (٤٥٨) ه، المخصص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٥/ ٩٥، والزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨) هـ، شرح المفصل لابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٣/ ٢٨٩.

(٤) الألوسي، روح المعاني، ج٣/ ١٢٩.

الإفراد بدل الجمع، ولم يلتفتوا إليها فتركوها دونما تحليل وبيان.

ثانيًا: من تعرض من كتب التفسير لهذه المفردة لازالوا يقتفون آثار النحاة في صنعتهم فصُرفوا عن دلالات الإفراد بدل الجمع.

فظهرت شخصية المفسرين النحوية واللغوية، ولم تتكشف شخصيتهم البلاغية.

ثالثًا: الاتجاه العام للمفسرين في تعرضهم لهذه الآية الكريمة مال إلىٰ الإيجاز والاختصار، دونما توسع وإطناب، ولم يظهروا اهتمامًا بالغًا في تحليل النص بيانيًا.

فتكلفوا يسيرًا في توجيه الإفراد من ناحية لغوية فحسب. ولم يظفروا بالحق.

رابعًا: يظهر جليًا من تعقيبات المفسرين علىٰ هذه الآية أن الآخر منهم يأخذ عن الأول ولا يعزوا إليه، فلم يأت بجديد.

خامسًا: سعىٰ المفسرون للدلالة علىٰ صحة وقوع المفرد موقع الجمع، واجتهدوا في ذلك، لكنهم لم يبحثوا في علة جلب الإفراد موضع الجمع، ولم ينفذوا إلىٰ أسرار الإعجاز فيه.

سادسًا: أطل الألوسي علىٰ الحق في هذا التحول في المفردة القرآنية، وكان تأويله واضحًا لا لبس فيه، فقد وحّد القرآن لفظ (عدو) إشارة إلىٰ توحّد كلمتهم في مواجهة أهل الحق.

فهم يتنادون جميعًا علىٰ الإسلام وأهله، وتلتقي كلمتهم وأهدافهم للكيد بهذا الدين، وإن كانوا فيما بينهم مختلفين، فالكفر ملة واحدة، ويد واحدة كذلك علىٰ الإسلام وأهله.

"فأفرد (عدوًا) لجعلهم كذات واحدة في الاجتماع والترافد، كقوله صلىٰ الله عليه وسلم: (المؤمنون كنفس واحدة) "[1].

سابعًا: اختار القرآن بهذا التحول المفردة الأكثر امتلاءً بالمعنىٰ، فقد ملئت

---

(١) الرضي، محمد بن الحسن (٦٨٦) هـ، شرح الكافية، تعليق يوسف عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م، ٢/ ١٧٧، ولم أقف علىٰ الحديث بهذا اللفظ وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: (المؤمنون كرجل واحد)، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: (٢٥٨٦).

بالدلالات والمعاني، ففيها تنبيه للمسلمين من وحدة صف الكفر علىٰ عداوتهم، فليحذروا وليكونوا كذلك صفًا واحدًا ضدهم وإلا هلكوا.

وفيها إشارات لوحدة هذه الأمة وتماسكها حتىٰ لا تفترق فتضعف فتهلك. فإن العدو متربص بها، متهيء لذلك، ولا نجاة لها إلا بالوحدة والتكاتف فيما بينها، وأن يكونوا كنفس واحدة كذلك.

فهمست هذه المفردة بمدىٰ حاجة الأمة إلىٰ الوحدة، في مواجهة وحدة الكافرين. وكان لها إيحاءات وظلال اتسع بها المعنىٰ وزادته غناءً.

المطلب الثاني: وضع الجمع موضع المفرد.

مثال (١):

النص القرآني: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤].

موطن الشاهد ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ .

فقد استعمل القرآن الجمع للدلالة علىٰ الواحد، مغايرًا ما يناسب السياق العام للآية، ولا شك أن لذلك دلالات وإيحاءات يكشف عنها كل من دقق النظر في رموز القرآن وأسراره من وراء إيثار الجمع وهجر الإفراد الملائم للسياق.

آراء المفسرين:

- أما قوله (الناس)، فإن أهل التأويل اختلفوا فيمن عنىٰ الله به، فقال: عنىٰ الله بذلك محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم خاصة (٢).
- قال ابن عباس: الناس: محمد صلىٰ الله عليه وسلم (٣).

---

(١) التزمت في بحثي هذا أن لا أتعرض لأمثلة من غير سورة النساء، ولم أقف فيها إلا علىٰ هذا المثال من وضع الجمع موضع المفرد، فاعتذر لعدم التوازن بين المطلبين. لكني أرىٰ أن المقصود من عقد هذا المبحث قد تحقق.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٨/ ٤٧٦، ابن عطيه، والمحرر الوجيز، ج٢/ ٦٧، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج٦/ ٤٢٥.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١) هـ، درج الدرر في تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، =

• فالناس هنا: محمد صلىٰ الله عليه وسلم الذي جمع فضائل الناس كلهم الأولين والآخرين، وزاد عليهم ما شاء الله [١].

• وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقًا في الجمع العظيم، ومن هنا يقال: فلان أمة وحده، أي يقوم مقام أمة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠] [٢].

• فلما جمع ما في الناس من خصال حميدة سماه الله (الناس) [٣].

• وقيل: إن (الناس) هنا هم: رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه، لأن من حسد علىٰ النبوة، فكأنما حسد الناس كلهم كمالهم ورشدهم [٤].

• فـ (اللام) في الناس للعهد، والإشارة إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم والمؤمنين، وحمله علىٰ الجنس إيذانًا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة، فكأنهم هم الناس لا غير [٥].

• فَحَسُنَ ذكر الناس لإرادة طائفة معينة من الناس، لأن المقصود من الخلق هو القيام بالعبودية، فلما كان القائمون بهذا ليس إلا محمدًا، ومن كان علىٰ دينه، كان هو وأصحابه كأنهم كل الناس [٦].

• فأطلق اللفظ العام، وأراد به الخصوص، فالمقصود بالناس هنا إنسان واحد هو محمد صلىٰ الله عليه وسلم، جمع ولم يفرد لأنه المثل الأعلىٰ للإنسانية [٧].

وجمع ما في الناس من الخصال الحميدة، فهو مجاز مرسل علاقته العموم.

= الأردن، ط١، ٢٠٠٩م، ج١/ ٤٩٦، الحنبلي، عبد الرزاق بن رزق الله(٦٦١) هـ، رموز الكنوز، مكتبة الأسدي، مكة، ط١، ٢٠٠٨م، ج١/ ٥٣٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥/ ٨٨.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج٣/ ٢٨٤، وانظر: البقاعي، نظم الدرر، ج٥/ ٣٠٣.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠/ ١٣٦.

(٣) السيوطي، الإتقان، ج٢/ ٥١.

(٤) حاشية شيخ زاده علىٰ البيضاوي، ج٣/ ٣٤٢.

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج١/ ٧١٧.

(٦) الدوسري، عبد الرحمن، صفوة الآثار والمفاهيم، دار المغني، الرياض، ط١، ٢٠٠٤م، ج٥/ ٤٢٥.

(٧) الصالح، صبحي (١٤٠٧) هـ، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م، ج١/ ٣٠٧.

موازنة وترجيح:

من خلال النظرة الموازنة بين أقوال المفسرين نلمح ما يأتي:

أولًا: كانت سهام المفسرين نافذة، وكانوا أكثر شمولية ودقة في تحليلهم لجلب الجمع بدل الإفراد. وظهرت في تحليلهم ملامح النهج البياني للنص القرآني.

ثانيًا: قدم المفسرون تعليلًا منطقيًا سائغًا، وقد تهيّأ لهم الصواب دونما تكلف مشقة في مقاربة الصواب.

ثالثًا: عالج المفسرون هذا النص الحكيم معالجة بيانية، ولم يقفوا عند ظاهر النص.

رابعًا: وقد أقام القرآن الجمع مقام الواحد تعظيمًا للنبي عليه الصلاة والسلام، وتنزيلًا للكثرة في خصال الخير منزلة الكثرة في العدد، وهذا ما أشار إليه كثير من المفسرين بقولهم: وقع عليه لفظ الجمع وهو واحد، لأنه اجتمع عنده من خصال الخير مالا يحصل إلا متفرقًا في الجمع العظيم، ومن هذا يقال أمة وحده، أي: يقوم مقام أمّة.

فاستعار القرآن الجمع وهجر الإفراد للتعظيم والتكثير، وفيه إشارة ظاهرة علىٰ بلاغة الجمع ودلالاته البيانية.

خامسًا: كشف الجمع عن وجه بلاغي راق، فرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أمة وحده جمع خصالًا لا تتناهىٰ، ولا تجتمع إلا في أمة كاملة، وهو إمام هذه الأمة، وفي الجمع تعظيمٌ وتشريفٌ لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

فخلع الجمع جوًا من التعظيم لجناب النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وأفاض عليه ضربًا من الإجلال، وكل ذلك لا يتأتىٰ بالإفراد.

وهذا الجو من التعظيم والإجلال يشي به الجمع بوضوح ظاهر، ولو جاء القرآن بالإفراد لتفلتت هذه المعاني وتناثرت. وهكذا هو القرآن يفجر المعاني الكثيرة في كلمات قليلة.

* * *

الخاتمة

النتائج:

أولًا: اختار القرآن لمفرداته صيغًا مختلفة قادرة على أن تشيع في نفس السامع ما تحمله من دقائق الإشارات، وخفايا المقاصد.

ثانيًا: أن القرآن بتحولاته في بنية الكلمة إنما يطلب المفردة الأكثر امتلاءً بالمعنى، فيهجر الجمع ويؤثر الإفراد والعكس كذلك، ليخلع على النص دلالات بيانية وإشارات راقية، يكشف عنها حسن التتبع والنظر.

ثالثًا: تمثل هذه التحولات في بنية الكلمة القرآنية منهجًا واضحًا خط لنا سبيل العلم والدرس لموضوع من أكثر الموضوعات صلة بالكتاب العزيز، الذي تتجلى فيه سماوة القرآن في التبدل بين صيغ الألفاظ. فقد وفى بأغراض النظم ودواعيه.

التوصيات:

أولًا: أوصي بان تقوم هيئة بتبني مشروع لدراسة مواطن التغاير بين الإفراد والجمع في القرآن الكريم، للوقوف على أدق أسرار هذا الكتاب العزيز.

ثانيًا: أن تقوم كليات الشريعة بتدريس مادة التغاير بين صيغ الإفراد والجمع في مادة الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وذلك للكشف عن جماليات النص القرآني وأذواقه البلاغية.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

١. ابن الأثير، نصر الله بن محمد (٦٣٧) هـ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفىٰ جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ.

٢. ابن الأثير، نصر الله بن محمد (٦٣٧ هـ)، المثل السائر، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

٣. ابن السرّاج، محمد بن السري (٣١٦ هـ)، الأصول في النحو، تحقيق عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥م.

٤. ابن الشجري، هبة الله بن علي، أمالي ابن الشجري، مطبعة المدني، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

٥. ابن الوراق، محمد بن عبد الله (٧٣١ هـ)، علل النحو، تحقيق محمود الدرويش، مكتبة الرشيد السعودية، ط١، ١٩٩٩م.

٦. ابن جني، عثمان بن جني (٣٩٢ هـ)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، تحقيق علىٰ النجدي، ١٩٩٩م، د.ط.

٧. ابن سيده، علي بن إسماعيل (٤٥٨ هـ)، المخصص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٨. ابن عادل، عمر بن علي (٧٧٥ هـ)، اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٩. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٣٩٣ هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٠. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١١. ابن عطية، عبد الحق بن غالب (٥٤٦هـ)، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

١٢. ابن فارس، أحمد بن فارس(٣٩٥) هـ، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق عمر طباع، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٣م.
١٣. ابن قتيبه، عبد الله بن مسلم (٢٧٦) هـ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
١٤. ابن هشام، عبد الله بن يوسف (٧٦١ هـ)، شرح شذور الذهب، تحقيق عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، د.ت.
١٥. ابن وهب، إسحاق بن إبراهيم (لم أقف علىٰ سنة وفاته)، البرهان في وجوه البيان، تحقي: د. جفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط.
١٦. أبو السعود، محمد بن محمد (٩٨٢ هـ)، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (٩٨٢ هـ)، إرشاد العقل السليم، مكتبة الرياض الحديثة، د.ط، د.ت.
١٨. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٤٥ هـ)، البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، درا الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٩. أبو عبيدة، معمر بن المثنىٰ(٢١٠) هـ، مجاز القرآن، تحقيق سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ.
٢٠. الأزهري، محمد بن أحمد (٣٧٠ هـ)، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٢١. الألوسي، محمود شهاب الدين (١٢٧٠ هـ)، روح المعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٤م.
٢٢. الأنباري، عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧ هـ)، أسرار العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٢٣. البستاني، كرم، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
٢٤. البصير، كامل، المنهج القرآني في صياغة المصطلحات، مجلة المجمع

العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠م.

٢٥. البغوي، الحسين بن مسعود (٥١٦ هـ)، تفسير البغوي، معالم التنزيل، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٨٩م.

٢٦. البقاعي، إبراهيم بن عمر (٨٨٥ هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.

٢٧. الثعلبي، أحمد بن محمد(٤٢٧ هـ)، الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٨. جبران، لبيب محمد، عناية علماء التفسير ببيان غريب القرآن الكريم، درا الفاروق، عمّان، ط١، ٢٠١٢م.

٢٩. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ هـ)، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم المرجان، العراق، وزارة الإعلام، ١٩٨٢م.

٣٠. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ هـ)، درج الدرر في تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

٣١. الجياني، محمد بن عبد الله (٦٧٢) هـ، شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق عبد الرحمن السيد، دار هجر، ط١، ١٩٩٠م.

٣٢. الحلبي، أحمد بن علي(٧٥٦ هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، د.ط، د.ت.

٣٣. الحنبلي، عبد الرزاق بن رزق الله(٦٦١ هـ)، رموز الكنوز، مكتبة الأسدي، مكة، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٤. الحنفي، إسماعيل بن محمد(١١٩٥) هـ، حاشية القونوي علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

٣٥. الخضري، محمد الأمين، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، مطبعة الحسين، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

٣٦. الخفاجي، أحمد بن محمد (١٠٦٩) هـ، حاشية الشهاب علىٰ البيضاوي، دار

صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

٣٧. الدوسري، عبد الرحمن، صفوة الآثار والمفاهيم، دار المغني، الرياض، ط١، ٢٠٠٤م.

٣٨. الرازي، محمد بن عمر (٦٠٤ هـ)، مفاتيح الغيب، درا الفكر، ط١، ١٩٨١م.

٣٩. الراغب، الحسين بن محمد (٥٠٢ هـ)، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق عادل الشّدي، مدار الوطن للنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

٤٠. رضا، محمد رشيد (١٣٥٤هـ)، تفسير المنار، مطبعة المنار، ط١، ١٣٢٨ه.

٤١. الرضي، محمد بن الحسن (٦٨٦) هـ، شرح الكافية، تعليق يوسف عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م.

٤٢. الرومي، مصطفىٰ بن إبراهيم (٨٨٠) هـ، حاشية ابن التمجيد علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

٤٣. زادة، محمد بن مصلح الدين (٦٨٥ هـ)، حاشية شيخ زاده علىٰ البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٤. الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (١٣٦٧ هـ)، مناهل العرفان، مطبعة عيسىٰ البابي، مصر، ط٣، د.ت.

٤٥. الزركشي، محمد بن عبد الله (٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، ط١، ١٩٧٥، دار إحياء التراث العربي.

٤٦. الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، شرح المفصل لابن يعيش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٤٧. الزمخشري، محمود بن عمر(٥٣٨ هـ)، الكشاف، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م.

٤٨. سبط الخياط، عبد الله بن علي (٥٤١) هـ، المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش، رسالة دكتوراه، عبد العزيز السَّبر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٤هـ.

٤٩. السبكي، أحمد بن علي (٧٧٣) هـ، عروس الأفراح، مطبعة عيسىٰ البابي، مصر، ١٩٣٧م.

٥٠. سلام، محمد بن سلام (٢٣٢) هـ، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة.

٥١. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١) هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٤م.

٥٢. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد (١٣٩٣ هـ)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٥٣. الصالح، صبحي (١٤٠٧ هـ)، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م.

٥٤. الصعيدي، عبد المتعال (١٣٩١ هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، ط١٧، ٢٠٠٥م.

٥٥. الطبري، محمد بن جرير (٣١٠) هـ، جامع البيان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.

٥٦. طبل، حسن، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

٥٧. الطيبي، الحسين بن عبد الله (٧٤٣ هـ)، حاشية الطيبي علىٰ الكشاف، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، رسالة دكتوراه، صالح الفايز، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ.

٥٨. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧) هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد النجار، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.

٥٩. القرطبي، محمد بن أحمد (٦٧٧) هـ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م.

٦٠. محيسن، محمد بن محمد سالم (١٤٢٢ هـ)، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، مطبعة الحسين، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.
٦١. النسفي، عبد الله بن أحمد (٧١٠) هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٦٢. النيسابوري، الحسن بن محمد (٨٥٠) هـ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
٦٣. الواحدي، علي بن أحمد (٤٦٨) هـ، التفسير البسيط، تحقيق: د. محمد بن صالح الفوزان، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، ط١، ١٤٣٠هـ.

❊ ❊ ❊